

أحسن الظن بربك ومولاك



أحمد محمد مخترش

مقالات متعلقة

تاريخ الإضافة: 5/6/2013 ميلادي - 26/7/1434 هجري

الزيارات: 23706



أحسن الظن بربك ومولاك

الخطبة الأولى

الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه وعمل بسنته إلى يوم الدين.

أما بعد:

أيها المؤمنون: إن من مسائل التوحيد المهمة والتي يغفل عنها كثير من الناس بل حتى بعض من لهم حظ من العلم مسألة حسن الظن بالله، وقد بوب شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله على هذه المسألة في كتاب التوحيد منبهاً بها على وجوب حسن الظن بالله لأن ذلك من واجبات التوحيد، ولذلك ذم الله من أساء الظن به، لأن حسن الظن به مبني على العلم برحمة الله وعزته وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة التوكل عليه، فإذا تم العلم بكل هذا أثمر حسن الظن بالله سبحانه.

وفي الحديث القدسي قال الله تعالى: ((أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني)) أخرجه البخاري ومسلم.

وعن جابر قال: سمعت رسول الله قبل موته بثلاثة أيام يقول: ((لا يموتن أحدكم إلا وهو حسن الظن بالله عز وجل)) أخرجه مسلم.

وعند الترمذي: ((حسن الظن بالله من حسن العبادة)).

ومما يجلي أهمية هذا الأمر واقع الناس وحالهم مع حسن الظن بالله، فمن الناس من اتكل على حسن ظنه بربه واعتمد عليه مع إقامته على المعاصي متناسياً ما توعد الله به من وقع في ما يسخطه ويغضبه، غافلاً عن الخوف من الله حتى وقع في الغرور.

قال ابن القيم رحمه الله: "ولا ريب أن حسن الظن إنما يكون مع الإحسان، فإن المحسن أحسن الظن بربه أن يجازيه على إحسانه وأن لا يخلف وعده وأن يقبل توبته، وأما المسيء المصر على الكبائر والظلم والمخالفات فإن وحشة المعاصي والظلم والحرام تمنعه من حسن الظن بربه"

اهـ.

وفي مقابل هذا الصنف من الناس صنف آخر على النقيض ساء ظنه بربه فاعتقد خلاف مقتضى أسمائه وصفاته، فوقع فيما وقع فيه الكفار والمنافقون الذين ظنوا بالله غير الحق ظن الجاهلية.

قال ابن القيم رحمه الله في وصفه لحال هذا الصنف من الناس: "فأكثر الخلق بل كلهم إلا ما شاء الله يظنون بالله غير الحق ظن السوء، فإن غالب بني آدم يعتقد أنه مبخوس الحق ناقص الحظ وأنه يستحق فوق ما أعطاه الله، ولسان حاله يقول: ظلمني ربي ومنعني ما أستحق ونفسه تشهد عليه وإن كان لسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به. ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة دفائنها وطواياها رأى ذلك فيها. ولو فتشت من فتشته لرأيت عنده تعنتاً على القدر وملامة له، وأنه ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر". اهـ.

أيها المؤمنون: إن لحسن الظن بالله أثراً في حياة المؤمن وبعد مماته، فأما في حياته فإن المؤمن حين يحسن الظن بربه لا يزال قلبه مطمئناً ونفسه آمنة راضية بقضاء الله وقدره، يتوقع الخير منه سبحانه دائماً في حال السراء والضراء.

كما أن من أحسن الظن بربه فأيقن صدق وعده وتمام أمره وما أخبر به من نصرة الدين والتمكين في الأرض للمؤمنين اجتهد نفسه في العمل لهذا الدين والدعوة إلى الله والجهاد في سبيله بماله ونفسه، يقدم إقدام الواثق بنصر الله وموعوده لا يصدفه عن ذلك تسلط الكافرين وتخاذل المسلمين وضعفهم وهوانهم.

وأما بعد الممات فإن لحسن الظن أثراً في مغفرة الذنب وقبول التوبة، ولذا أوصى به النبي عند الموت.

فمن ظن أن الله يغفر له ويتوب عليه فإن الله يكون عند ظن عبده به ولا يخيب رجاءه فيه.

ولذا عني السلف بهذا الأمر أشد الاعتناء، فكانوا أحرص الناس عليه وأكثرهم دعوة إليه وحثاً عليه، قال ابن مسعود: (والذي لا إله إلا غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئاً خيراً من حسن الظن بالله عز وجل، والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله ظنه، ذلك بأن الخير بيده).

وكان سعيد بن جبير رحمه الله يدعو: "اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك".

أيها المؤمنون: وكما أن حسن الظن بالله سمة المؤمنين في حياتهم تطمئن به قلوبهم، فإن سوء الظن بالله أو ظن ما لا يليق به سبحانه هو صفة المنافقين والمشركين قال الله تعالى: ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء.

ولو تأمل المتأمل في أحوال كثيرٍ من الناس لظهرت له صور وأحوال من الظن السيء بالله لا تخطر له على بال.

فمن ظن بالله أنه إذا تضرع إليه وسأله واستعان به وتوكل عليه أنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله فقد ظن به ظن السوء، فكم من الناس يدعو ويتضرع وفي نفسه أن لا يستجاب له أقرب من أن يستجيب الله دعاءه وإن كان لا ينطق بذلك لسانه.

ومن ظن بالله أنه إذا ترك شيئاً لأجله طلباً لرضاه لم يعوضه الله خيراً فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه ينال ما عنده من النعيم والرحمة والغفران بمعصيته ومخالفته كما ينال ذلك بطاعته والتقرب إليه فقد ظن به خلاف حكمته وهو من ظن السوء.

وكم من الناس ممن استهان بمحارم الله ولم يقم لها وزناً قد أسرف على نفسه بالمعاصي،حين يكلم في ترك ما حرم الله والقيام بأمر الله يتعلق بأحاديث من الرجاء يجعلها حاجزاً له عن التوبة دافعة له في الانهماك في معصية الله، وما علم المسكين أن هذا من الاغترار والأمن من مكر الله.

ومن ظن أن الله يعذب أولياءه مع إخلاصهم ويسوي بينهم وبين أعدائه أو أنه يترك خلقه سدى بلا أمر ولا نهي أو أن لا يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب أو ظن أن الله يضيع عليه عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على وفق أمره، من ظن ذلك كله فقد ظن به ظن السوء.

هذه صور من الظن السيء فيما يخص العبد نفسه وهناك ظن سيء فيما يخص غيره.

فكم من الناس يظن أن لن ينتصر هذا الدين ولن يتم أمره أو يظن أنه لا يؤيد الله حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائه ويظهرهم عليهم، ويظن كذلك أن الله يجعل الغلبة للباطل وأهله على الحق وأهله غلبة ظاهرة دائمة لا تقوم للحق بعده قائمة.

وكل هذا من ظن السوء بالله، وهو خلاف ما يليق بكماله سبحانه وجلاله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلاهيته تأبى ذلك وتأبى أن يذل حزبه وجنده وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به، فمن ظن به ذلك فما عرف الله ولا عرف أسماءه وصفاته وكماله، وقد دعا هؤلاء إلى مثل هذا الظن السيء بالله ما يشاهدونه من المحن والمآسي التي تصيب المسلمين في الشرق والغرب فما إن تنفرج محنة حتى تقوم أخرى فيستبطئ هؤلاء الفرج ويغفلون عن أسباب النصر والتمكين إضافة إلى ما بهر عقولهم من قوة العدو ومكره غافلين عن قوة الله وعظمته ومكره بأعدائه.

ولو تأمل هؤلاء التاريخ لظهر لهم مثل هذه الابتلاءات التي حلت بالمسلمين لحكمة أرادها الله ثم أعقبها الله بالنصر والتمكين لأوليائه حين حصل المقصود من البلاء، فهذه غزوة أحد قد حصل فيها الابتلاء للمؤمنين، وبين ظهرانيهم رسول الله كسرت رباعيته وشج رأسه وقتل كوكبة من أصحابه وفر بعضهم حينها ظن المنافقون بالله ظن السوء. وكل هذا لحكمة أرادها الله، فكان من حكمة هذا التقدير والابتلاء أن تميز صف المؤمنين وظهر المنافقون وتكلموا بما في نفوسهم،فلله كم من حكمة في هذا الحدث العظيم وكم فيها من تحذير وتخويف وإرشاد وتنبيه وتعريف بأسباب الخير والشر، وكل هذا قد حكاه الله في كتابه فكان أول الأمر محنة وآخره منحة.

وقل مثل ذلك فيما حدث في غزوة الأحزاب حيث زلزلت القلوب وبدا النفاق وقطعت اليهود المواثيق وحصل للمؤمنين ما حصل من البلاء فأعقبهم الله نصراً مبيناً وفرق شمل عدوهم وقذف الرعب في قلوب اليهود.

ومثل ذلك ما حدث للمسلمين حين غزاهم التتار فحصل من الابتلاء ما الله به عليم، ومثله ما حصل للمسلمين بسبب الحملات الصليبية، وكل ذلك لحكمة أرادها الله فحصل من بعد ذلك نصر عظيم للمؤمنين قوض الله به صروح الباطل وأحيا به قلوب المؤمنين التي غلب عليها حب الدنيا والركون إلى أعدائهم، فكان بعد ذلك النصر والتمكين لأولياء الله.

وما أشبه الليلة بالبارحة فما يصيب المسلمين اليوم في مشارق الأرض ومغاربها من تقتيل وتنكيل وتسلط لأعدائهم عليهم إنما هو لحكمة أرادها الله، فنظن به سبحانه أن يكون ذلك إرهاصاً وتقدمة لعودة الأمة إلى دينها وتبصيراً لها بأعدائها من اليهود والنصارى والملحدين ممن لا يقيمون لدم المسلم وزنا، وإن تعالت صيحاتهم بالعدل والمساواة وحقوق الإنسان وتنبيهاً للأمة أيضاً بأن أعداءها لم يتخلوا عن توراتهم وإنجيلهم وعداواتهم وأحقادهم في الوقت الذي تخلت فيه الأمة عن العمل بكتابها وتاريخها، هذا ظننا بربنا أن يعلي كلمته وينصر دينه وهو سبحانه عند ظن عباده به. والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمدُ للهِ ربِ العالمين، وليُ الصالحين، ولا عدوانا إلا على الظالمين، والصلاةُ والسلامُ على إمامِ المتقين، وقدوةِ الناسِ أجمعين، وعلى آله وصحبِه والتابعين. أما بعد:

أيها المؤمنون: اتقوا الله حق تقواه، وتوبوا إليه واستغفروه كل وقت، واحذروا الظن به ظن السوء، وليعلم المؤمن أن النفس مأوى كل سوء ومنبع كل شيء مركبة على الجهل والظلم، وهي أولى بظن السوء بها من أحكم الحاكمين وأعدل العادلين وأرحم الراحمين الغني الحميد الذي له الغنى التام والحمد التام والحكمة التامة، المنزه عن كل سوء في ذاته وصفاته وأفعاله وأسمائه.

ألا فاتقوا الله عباد الله، وصلوا وسلموا على من أمركم الله بالصلاة عليه فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 56] اللهم صلي وسلم على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، وارض اللهم عن البررة الأتقياء، أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعن جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، واحم حوزة الدين، واجعل هذا البلد آمناً مطمئناً وسائر بلاد المسلمين يا رب العالمين. اللهم آمنا في أوطاننا وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل ولايتنا فيمن خافك واتقاك واتبع رضاك يا رب العالمين. اللهم وفق ولي أمرنا خادم الحرمين لما تحبه وترضاه من الأقوال والأعمال يا حي يا قيوم، اللهم أصلح له بطانته يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل، اللهم ارحمنا برحمتك، وأعِذْنا من سخطك وعذابك، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم اغفر لنا ذنوبنا، وكفِّر عنا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار؛ اللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا. ويمن كتابنا وهون حسابنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

عباد الله: إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينها عن الفحشاء والمنكر والبغي يعضكم لعلكم تذكرون، فذكروا الله الجليل يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون.
